الباب الثامن

الفلسفة والتصوف

* مفاهيم قديمة عن الكون
* تصور الاله
* ارتباط المبادىء
* جوهر التصوف
* آثار مسيحية فى صوفية العصر الأول
* المراتب وأصحابها
* فى مجال ما قبل الفلسفة
* أساطير عن خلق العالم
* تنوع القوى الفكرية
* معالم التطور فى الحضارة الفكرية الاسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

ويتضمن :

١ ــ مفاهيم قديمة عن الكون :

احتك الفكر الاسلامى فى عصوره الأولى بمفاهيم وأفكار قديمة ــ وجدت منذ آلاف السنين ــ عن العالم ، نسبت الى السومريين(١) والكلدانيين(٢) فتأثر المسلمون بها ، لأن الحضارة الفكرية لم تكن قد انفصلت بعد عن الفلسفة فى هذا الوقت المبكر ، ومن هــذه الأفكار اعتقاد الشرقيين أن الملائكة والأشباح أكبر المخلوقات الكونية ، ومن هنا كانت حياتهم بما فيها من تقاليد وأخلاق خاضعة لهذا التصور •

تحولت الأفكار الفلكية والالهية ، بما فيها من تنجيم وسحر الى تصورات عن كيفية خلق العالم ، اذ تخبر « ميثولوجيا » هذا العصر عن أن الله يجلس على كرسى فى السماء العليا • ثم تطورت فى نفس

---

(١) السومريون : شعب غير سامى ، استوطن بلاد سومر فى جنوب العراق فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، فأسسوا حضارة رفيعة ، امتد أثرها امتــدادا واسعا ، وقد جلا الأثريون حضــارة سومر فى جغرافيتها وسلالتها جلاء دل على فضلها فى وضع أسس النظم التجارية والمصرفية والموازين والمكاييل القانونية ، واعتماد العقود المكتوبة والأختام الشخصية فى المعاملة ، وتثبت أنها كانت فى تاريخ العالم أول من :

* عرف المركبات ذات العجلات •
* وقوم السنة باثنى عشر شهرا ، فورث تقويمها عنها : اليهود ، والفرس ، والمسلمون •
* وسن قانونا مدنيا مكتوبا •
* وجمع المعارف فى مكتبات ضمت احداها مجموعة من ثلاثين ألف لوح •
* ومن مدنهم « أور » و « أورك » و « لكش » و « تلو » •

(٢) الكلدانيون : هم سكان منطقة بلاد ما بين النهرين ، وكان يطلق على سكان هذه المنطقة قبل نزوح الكلدانيين اليها عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد « السومريون » كون الكلدانيون مملكة فيها ، بسطت سلطانها على كل أجزاء المنطقة وعندما وقعت تحت تأثير الأجانب الذين نزحوا اليها من الشمال (٢١٥٠ / ٢٠٥٠ ق•م) تمزقت الى عدة ممالك كان من بينها مملكة بابل الشهيرة •

الوقت تصورات شعبية ربطت المعارف الفلكية بالأساطير التى تحكى عما كان قبل خلق السموت ، ثم نسبتها الى أسماء الآلهة .

كانت هذه هى الأرضية التى خرجت منها الأفكار الخيالية عن تصور العالم فى المجتمع الاسلامى ، فقد كانت الفلسفة — التى تكونت تدريجيا قبل الأسلام — فى واقع الأمر هى علم النجوم ، وكان الدين عبارة عن تعاليم غامضة وأخبار مبهمة ، عن النور والظلمة مثل :

.. كان التنين حارسا لملكة الظلمة ، فنزل اله النور غاضبا مع المد الأزرق فانحسرت ملكة الأشباح ..

كان هذا التصور هو منطق « المزدكية »(١) و « الميترية »(٢) .. و « الغنوصية »(٣) ، وما أدت « الثنائية » فيما بعد الى انتشار عقيدة

---

(١) المزدكية : دين فارسى قديم ، دعا اليه زرادشت فى القرن السادس قبل الميلاد ، فكان يدعو قومه الى الاعتراف بالاله « مزدا » الذى يناضل ضد « اهرمان » ومنه خرجت عقيدة « الثنوية » وهى التى تتمثل فى الصراع بين الخير والشر ، وعليها بنى تعاليمه للناس . ومن أشهر تعاليمه : تقديس النار .

(٢) الميترية : جمعة كانت منتشرة فى الهند وايران ، قدست الاله « ميترا » اله النور عند قبائل الـ « هندو — أوروبية » وكانوا يعتقدون انه حامى العقود والعهود . اعترف بالوهيته زرادشت فيما بعد ، ثم تغلب على « اهورامزدا » وأصبح مساويا للشمس . انتشرت عبادته فى جميع أنحاء المملكة الرومانية ، وكان الزهاد يعتبرونه واسطة بين الانسان والخلود .

(٣) « الغنوص » و « الغنوسيس » هى كلمة يونانية الأصل معناها « المعرفة » غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحيا خاصا ، هو التوصل بنوع من الكشف الى المعرف العليا ، أو هو تذوق تلك المعارف تذوقا مباشرا بأن تلقى فى النفس القا ، فلا نستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية . وقد اعتبر الغنوصويون عقائدهم أقدم عقيدة فى الوجود . وأن الغنوصية أقدم « وحى » أوحى الله به ، فانتقل من طبقة غنوصية الى طبقة أخرى ، ولا يكف انتقاله ولا ينقضى . وهو يختلف عن غيره من العقائد الدينية بأن دائرته لا تتوقف أبدا . وقد احتفظ به مجموعة من الكهان والسحرة وتناقلوه ، معلنين أن بيدهم « مفتيح الأسرار الالهية » و « أسرار القدس الأعلى » وأن « بالغنوص » الخلاص الأبدى ، ذلك أنه الوحى المتجدد ، والفيض الذى ينبعث دائما من الملا الأعلى . ولا نعرف بالدقة أين ظهر .. هل أتى من فارس ، أو من الهند ؟ !! » .

(د. النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج ١ ص ٢٣٤) .

الحلول النورانى عند كل من الحلاج وعند المتصوفة المسلمين تقريبا •

حاولت الفلسفة الاسلامية ، تصوير عالم الأرواح ، ولم يكن هذا سوى تشخيص مفهوم « النرفانا »(١) الهندى ، وتعاليم الـ « مايا »(٢) التى مزجت تصورات فارسية ويونانية فى قالب صوفى غامض •

٢ ــ تصور الاله :

الله ــ بالنسبة للشرقى المتصل بالطبيعة اتصالا أكبر من اتصال الأوروبى بها ــ هو التجربة المباشرة التى يصل اليها الفرد بطريق مستقيم ، لا التواء فيه ، ويمكن أن يكون المقصود بهذا المعنى ، أن وجوده لا يحتاج الى دليل فى مرحلة ما قبل الوجود المدرك • ورغم هذا فلم تختف غريزة البحث من الانسان الشرقى ، بل كانت تلح عليه دائما ، ولم تدر المسألة فى المقام الأول حول اثبات وجود الله ، بل حول اظهار أن له السلطان على كل القوى الأخرى الموجودة فى العالم العلوى والسفلى ، فهو مسيطر على الملائكة والأرواح والأشباح •

كانت عجائب الكائنات المخلوقة واضحة للشرقيين ، ومع ذلك لم يترك علماء الطبيعة للمسلمين أى فرصة لتوضيح نواحى الاعجاز فى المخلوقات ، فكلما كشف الغموض عن معجزات الخالق فى خلقه ، كلما حصل الشعراء والفلاسفة على المزيد من الأدلة النظرية ، التى يتخذونها مادة لما يكتبونه •

---

(١) « النرفانا » : هى المرحلة التى يبلغها البوذى فى حياته على طريق التجرد والتخلص من أمانى الحياة المادية وجهالاتها ، فاذا مات بعد وصوله اليها ، تخلص من كل رباط يربطه بهذه الحياة ، واتحد مع العالم اللانهائى ، ولذا يعرفها البعض بأنها القضاء على الأنانية ، والتحرر من الهوى وسلطان النفس ، لأن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس ، ويمكن للانسان أن يكون سيد نفسه ، لا عبدا لها اذا استطاع أن يفلت من هذه الرغبات عن طريق الثقافة الروحية ، وحبه للآخرين •

(٢) « مايا » فى اللغة السنسكريتية : السحر أو الوهم والخيال وتدل فى كل الأديان والفلسفات الهندية على السلطة التى حولت العالم الى مادة ومظاهر متنوعة الأشكال والأنواع ولا يمكن أن يعود الى وحدته الأولى الا عن طريق المعرفة الخالصة للوحدة المطلقة •

أدت الملاحظة والتفكير فى كل الطبقات — سواء كانت عند قاطع الطريق أو لدى التاجر أو المزارع — الى تكوين أفكار تتناسب مع ما يقوم به من الأعمال اليومية ثم بدأ يتساءل :

•• كيف تكون القبو السماوى ؟

•• من شكل الجبال والوديان ، وأنبت الزرع ، وأنضج الثمار ؟

كذلك احتاج النور والظلمة ، والرياح والأمطار الى من يشرح أسبابها له •

أدت مصادر كل هذه الخطوات الأولى على طريق الفلسفة والتأمل الى ظهور بعض الحركات الاصـــلاحية ، لكنها كانت تعميقا للعقيدة الدينية أكثر منها تفريعا واختلافا وتفريقا فى فهم النصوص المقدسة ، فهى لم تصب قلوب المؤمنين فبقيت على ايمانها وتصورها لله — سبحانه وتعالى — • ومن ثم ذابت الفلسفة فى مجال اللغويات فتقبلتها العقيدة بهذا المفهوم وظلت « الميتافيزيقيا » فى شد وجذب فى مجال تحديد الكون والوجود •

من كل هذه المسبقات خرج علم الأخلاق الاسلامى ، اذ حاول تطبيق الأخلاقيات السليمة ، وخاصة فيما يتعلق بـــ « الواجب » فى المجتمع ، واتفق فى هذا مع الاتجاه مع تعاليم الدين الاسلامى •• ويمضى المؤلف فى بيان أن الحضارة التى نشأت فى ظل الاسلام ساعدت على ظهور الفلسفة ، ودفعت الى نوع من التأمل والبحث فى الكون • فاذا كانت التجربة الدينية فى صدر الاسلام قد عمقت العقيدة وصقلتها ، فان الازدهار الحضارى لم يتحقق الا بواسطة التوفيق بين مضمون العقيدة ومفهوم تصور الكون فى مجال الفلسفة ، ومن هنا كانت الفلسفة — هى المقياس الأول فى أهمية التاريخ الفكرى ، ولم يشاركها القرآن الا فى جوانب قليلة جدا •

٣ — ارتباط المبادىء :

رسم محمد — صلى الله عليه وسلم — وســـار على منهجه ، واستمر فى طريقه من بعده الدعاة والمفسرون لمبدئى : بقاء الله ، وفناء كل من وما عداه من مخلوقات — للمؤمنين الطريق المستقيم فى مجالى الفرائض والسلوك العملى ، كما حذرهم أيضا من أن يخالط الشك

قلوبهم ، وطالبهم بالدفاع عن عقيدتهم ومحاربة أعداء الله • غير أنهم اضطروا فى المناقشات التى دارت فى المجتمع أن يبينوا رأيهم فى معنى الحياة ، وحقيقة الوجود ، وحرية الارادة ، وحقيقة القضاء والقدر فتزعزعت ثقة كثير من الناس فى هؤلاء المؤمنين الذين يرون أن الدين يطلب منهم الاذعان لا المعرفة ومن وظيفة العلماء المتحررين ، وكذلك أيضا الفلسفة •

لم تظهر الفلسفة فى العالم الاسلامى فى مجال البحث العلمى الا فى وقت متأخر نسبيا ، فقد أسست أول مدرسة فى بغداد فى عام ١٠٦٥ م ، ولكن وجد قبل هذا تأثير وتأثر فكرى بين علماء الغرب والشرق ، فمن فارس انتشر مفهوم « الثنائية » بين الله والشيطان منذ القرن السابع الميلادى ، ومن الهند جاء — بجانب الطب والسحر — الفن والتأمل فى وجود الظواهر الكونية مصحوبة بتفاسير خيالية ، وكان المسيحيون السوريون حلقة الوصل فى نقل الثقافة الاغريقية الى العرب ، اذ ترجمت مؤلفات يونانية فى القرن التاسع الميلادى الى اللغة العربية ، كما وجد فلاسفة الأفلاطونية الحديثة — الذين فروا من اليونان نتيجة الاضطهاد — ملجأ لهم فى المنطقة الاسلامية ، التى كان يسودها التسامح والحرية الفكرية • ومن هنا اشتهر فلاسفة اليونان عند العرب •

وكان حملة الفلسفة هم طبقة المثقفين العرب ، وعلى الرغم من أن أرسطو احتل مكانة مرموقة بين المثقفين الا أن مكانة تعاليم القرآن الكريم لم تهتز فى قلوب من درسوا الفلسفة ، أو تناولوها بالبحث والشرح ، وان كانوا قد عارضوا بعض اتجاهات المفسرين •

لا يجوز أن نقيس الفلسفة الاسلامية بمقياسنا ، فقد كانت شروحا وتعليقات أكثر منها انتاجا مبتكرا فى قضايا الفلسفة • نعم ! لقد وجدت مؤلفات عالجت المسائل الفلسفية الأساسية • ولكن يجب أن تؤخذ على أنها تعبير عن طريقة التفكير فى القرون الوسطى ، حيث كان المفكر دائرة معارف ، يعرف كل شىء •• حتى التاريخ الطبيعى • ومن هنا ارتبطت الفلسفة من ناحية بالعقيدة ، ومن ناحية أخرى بالتصوف ، ولكنها لا تفهم أيضا بدون معرفة العالم الشرقى ككل ، بما فيه الهند ، كما يجب أن تدرس الفلسفة الاغريقية قبل محاولة فهم فلسفة العالم الاسلامى •

٤ ــ جوهر التصــوف :

كان اتجاه الحياة الدينية الى التأثير الباطنى محركا للعواطف فى مجال عالم العقيدة الاسلامية فى كل العصور والأزمان ، واتخذ صيغا مختلفة ، اذ ظهر فى صورة رفض للحياة المـادية (زهد) ، أو فى صورة جماعات من الرجال اتخذوا أسلوبا خاصا فى حيـاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، وأطلق عليهم « صوفيون » بسبب ارتدائهم الصوف ، أو « دراويش » بسبب فقرهم .

ويخالف جوهر الصوفية الفكر المسيحى فى مقابلته بين الطبيعة والروح ، وبين الخطيئة والمغفرة ، اذ بينما يكون التغلب على بعد الله هنا بواسطة حلول الله فى مخلوق ، يرى الصوفى أن القرب يحدث عن طريق علاقة روحانية ، فيمكن أن نسمى المفهوم الغربى المسيحى « ظهور الله فى صورة انسان » ، ولكن يستطيع الله أن يقترب من عبده ــ حسب مفهوم الصوفى ــ عن طريق ملك ، فيبلغه ما يريد ، سواء كان اخبار بثواب أو عقاب ، أو كان مساعدة يحتاج اليها العبد . ومحبة الله تسرى فى جميع بدن المتصوف ، فيجد طريقه الى الله ، ويزداد اقترابا منه كلما زاد حبه له .

تمتع معظم الصوفيين بملكة خيالية واسعة مكنتهم من تخيل رؤية الله وملائكته ، فتجاوزوا بهذا مرحلة التصور المجرد لله ، اذ تدرجوا فى طريقهم فاجتازوا مرحلة حيث سمح لهم بالاطلاع على أسرار التجربة الصوفية فظهر لهم مكانهم الخاص فى سلسلة الرتب العليا ، واستمرت قوة الحب فى دفعهم الى التعمق فى عالم الأسرار الالهية .

يعتقد كل الصوفيين أن خلق العالم هو عمل كلمة الله ذاتها ، ومن هنا تجسدت كل الأرواح فى ملامح وجود الله (أى فى صورة الله) فهم دلائل على وحى الله ذاته ، ولكنهم يمثلون فى الوقت نفسه ــ اذا لاحظنا جانب وجودهم ــ أول درجات البعد عن الله ، وهذا هو الحجاب الأول ، اذ هم ــ على الرغم من وجودهم بواسطة الله ــ شىء آخر مختلف عن الله . ولمـا كان الله لا يقبل أن يكون بجانبه شىء غريب ، فقد اضطر الى الانسحاب منها ، فحولها الى طبيعتها الخاصة ، وهذا هو الحجاب الثانى . وبينما تأخذ الأرواح طريقها

فى النزول حتى الانسان ، يزداد بعد الله تدريجيا عن كل ما هو أرضى(١) .

يتلخص طريق الصوفية فى محاولة الرجوع الى الله عبر هذه الحجب ، ولذا يجب عليهم أن يغيروا أنفسهم ليروا بعين الله ، لأنهم بهذا فقط يستطيعون رفع الحجب عن المعنى الحقيقى لوجود الله ، ويصلون الى حضرته الالهية ، لأن الحجب ستصبح بالنسبة لهم مرايا يرون فيها الله فى هيئته الحقيقية . ولن يجدوا مدخل جنتهم الخاصة فى عالم التصوف الكامل الا بعد أن يتجاوزوا الحجب التى تحجبهم عن الله .

ومن هنا يخرج تبرير وجود الصوفيين ، فهم الوساطة بين المخلوقات وبين الخالق ، وهم « العين ، التى بها يستطيع الله أن يرى مخلوقاته » .. ولهذا يعتقدون أيضا أن العالم لا يمكن أن يوجد بدون الأقطاب المنتشرين فى الارض .. وبدون الأنبياء .

---

(١) تأثر الصوفيون فى هذه الفكرة بما أثر عن الفلاسفة من مبدأ الوساطة ، ذلك أنهم يقولون بـ « ثنائية الوجود » وبتقسيمه الى فاعل وقابل ، فاذا كانت صلة القابل بالفاعل صلة مباشرة ، أخذ القابل عنه كثيرا من صفاته ، ولما كان ـ الله كاملا والعالم ناقصا .

ـ الله متمحضا للخيرية ، والعالم غير متمحض لها .

ـ الله واحدا من كل وجه ، والعالم متكثر كثرة لا نهاية لها .

فلا يمكن أن يكون اتصال الله بالعالم اتصالا مباشرا ، ولهذا اخترعوا فكرة الوساطة ، وسلسلوها حتى وصلت الى الانسان ، « فهى وساطة بين فاعل وقابل ، ومسلسلة فى الترتيب ـ ان كانت متعددة ـ من الفاعل الى القابل ، ناقلة أثر الفاعل الى القابل ، فتصورها لا يكون الا على نحو أن الذى منها يلى الفاعل يكون ناقلا أثره الى ما يأتى بعده ، وهذا الذى يأتى بعده يكون ناقلا لهذا الأثر للذى يليه ، وهكذا ... حتى اذا انتهى الأمر الى الطرف الأخير فى سلسلة هذه الوساطة مما يلى العالم ، يكون هو المتصل مباشرة به ، وهو الذى ينقل اليه مباشرة أثر الفاعل الأول .

* واذا صورت الوساطة على هذا النحو ، فانها تصور أيضا على أن الذى منها يلى الفاعل أشرف فى الوجود ، وأعلى قيمة ، وأقل دائرة فى الكثرة من الذى يجىء بعده .. وهكذا .. اذ بدون هذا التصور الأخير ، لا يتصور ارتفاع الهوة أو تخفيفها على الأقل ، بين كامل من كل وجه وناقص ، وبين واحد من كل وجه ومتكثر كثرة لا نهاية فيها » (الجانب الالهى من التفكير الاسلامى للاستاذ الدكتور محمد البهى ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢) .

يتخذ كثير من خيالات المتصوفين أشكالا قديمة ، تظهر فى صورة ملك أو جبريل أو موسى ، أو محمد ، ويمثل هذا النوع من الأحداث الرمزية المعرفة التى أحدثت الخلاف بين رجال الدين وبين المتصوفين •

يرى الصوفيون الله على أنه الجمال الخالد ، كما رأوا محمدا — صلى الله عليه وسلم — على أنه ظاهرة المادة الأولى ، وليس كالحتمية المطلقة التى فشلت فى الظهور فى موسى ، لأن الله امتنع عن اظهار نفسه فى شخصه •

تقول الأفلاطونية الحديثة :

« •• الله محبة ، فالحب والمحبوب متساويان •• » •

ومن هنا امتد طريق الصوفية فى عصورها المتأخرة من الحب البشرى الى حب الله ، فالحب الدنيوى درجة أولى على طريق الوصول الى الأسرار الالهية ، فتجربة الحب الالهى فى عالم الانسان الدنيوى تمتد فجأة ، وتبدو وكأنها اقتحام من العالم العلوى الى العالم السفلى • وبهذا يتم معنى ايجاد المخلوقات ، اذ هو يتحقق بالولوج فى فحوى الجمال والحب • ولما كان الصوفيون لا يؤمنون بالحلول المسيحى فهم لا يؤمنون بحلول الله فى الانسان كمادة ، ولكنه لم ينفصل أيضا عن المخلوقات حتى لا يصبح تصور مجرد ، كما يذهب الى ذلك رجال الدين والفلاسفة ، فنظرية الصوفيين فى خلق العالم هو الفصل فى الكون بين فاعل ومفعول •• نعم ! •• ان التجربة الروحية طريق الى الله ، ولكنها ليست وسيلة للاتحاد الذى يؤمن به المسيحيون فى مسألة خلق عيسى عليه السلام •

فحين خلق العالم من الحب ، وضع فيه الحنان الى الرجوع الى الأصل ومن هنا خلق آدم أبو البشر ، فعلى الرغم من أن المادة الأرضية قد حجبت الأصل الالهى ، فقد ظهر مرارا على طريق الظواهر الالهية ، ولكنه بمعنى آخر غير ما يفهمه المسيحيون •• ويمضى المؤلف فى بيان أن الحب هو الطريق الموصل الى الحضرة الالهية ، ليس فقط حب الله ، بل أيضا حب الناس ؛ اذا كان الغرض منه أنه يرى فيه صورة الاله ، وهكذا أيضا فى كل مخلوقات الله •

٥ ــ آثار مسيحية فى صوفية العصر الأول :

على الرغم من أن الأبحاث أثبتت أن الصوفية الاسلامية نمت، وتطورت على أسس ذاتية الا أنها احتكت فى العصر الأول بالأفكار المسيحية ، فقد عاش المسلمون والمسيحيون جنبا الى جنب فى عصر الخلفاء الراشـــدين ، وفى عهود الدولة الأموية فأخـــذ المسلمون عن المسيحيين أشياء لم يعهدوها من قبل •

حرك الرهبان المسيحيون ــ وهم فى صوامعهم المعزولة عن الحياة الاجتماعية ــ عواطف بعض المسلمين ، فناقشوهم فى مسائل دينية ، فأدى هذا الاتصال الفكرى الى أن بعض المسلمين قلدوهم فى بعض جوانب حياتهم ، وليس معنى هذا أنهم اعتكفوا فى صوامع مثلهم ، بل أخذ التفكير صورة أخرى تمثلت فى أنهم هيأوا لهم مكانا خاصا فى بيوتهم ، مارسوا فيه صلاتهم وقراءة أذكارهم وأورادهم • استمع هؤلاء المسلمون الى نصائح الرهبان المسيحيين فى هذا المجال ، ولكنهم لم يمارسوا عبادتهم على الطريقة المسيحية ، فقد كان أساس أذكارهم هو القرآن الكريم ، الا أنهم اتبعوا نصائح الرهبان فى كيفية الاستغراق فى التأمل ، أو الانفصال عن عالم الشعور بالاندماج فى اللاشعور •

احتلت أخبار وقصص الالتقاء بالرهبان المسيحيين والراهبات مكانا فى الأدب الاسلامى ، وأحيطت بهالة من الصور المغرقة فى الخيال ، أو ربما كان بعضها من اختراع التصور الذهنى ، ولم يكن له صورة فى الواقع ، مما يؤكد أن الرهبنة المسيحية كانت من دوافع ظهور الزهد فى المجتمع الاسلامى • شعر الزهاد المسلمون بأن بينهم وبين الرهبان المسيحيين صلة ، اذ تجمعهم صفة التقوى والتفرغ لعبادة الله فاعتقد بعضهم أن المسيحية الصحيحة هى ما عليه هؤلاء الرهبان ، الا أنهم لم يحرفوها ، كما حرفها بقية المسيحيين ••• ويمضى المؤلف فى بيان أثر المسيحية فى بعض ما يردده الصـــوفيون من تعبـــيرات خاصة ما اقتبس من موعظة الجبل ، لكنه أكد أن هذه العلاقة لم ترفع الخلاف القـــائم بين المسلمين والمسيحيين حول طبيعة المسيح ، فالمسلمون يتسامحون مع أصحاب الأديان الأخرى فى الحـــدود التى لا تسمح بتجسيد الله تجسيدا بشريا •

أظهر الاسلام ــ فى احتكاكه بمجال حضارة القرون الوسطى ــ خاصية فريدة ، أثارت العجب فى عالم التأثر بالحضارات الانسانية ،

ذلك أنه على الرغم من اتصاله بالمسيحيين وبالرهبان ، وتقليد الصوفيين للرهبان فى خلواتهم الروحية الا أنه — أى الاسلام — لم يهضم شيئا من التعاليم المسيحية ، فاحتفاظه بتماسكه الذى لا يسمح بدخول عقائد غريبة فى حرمه يدل على مدى قوة وصلابة الشعور بوحدة مبادئه فى العصر الأول • أدى هذا الوثوق والاعتداد بالنفس الى أن الثقة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين اختفت فى عصر العباسيين ، وظهر ذلك أيضا عند الصوفيين ، فقد تركوا كل الأعمال الروحية التى كان يقوم بها الرهبان جانبا لأنها لم تمثل العقيدة الصحيحة •• وعندما انقطعت العلاقة بالمسيحية • بدأت حركة التصوف فى الازدهار الحقيقى ، واستخدمت ما أخذته من الرهبنة المسيحية فى تطورها تطورا ذاتيا فى العصور التالية •

٦ — المراتب وأصحابها :

تناول المؤلف مراتب الصوفية بالتفصيل ، مبينا أوصاف أهلها وخصائصهم وخضوعهم لمن هو فوقهم ، ثم ساق مثلهم المشهور :

« •• ينبغى أن تكون فى يد الشيخ مثل الجثة فى يد مغسلها •• » • لأن تعاليم الصوفية تؤكد أن الله اختاره •

وصلت المراتب تسعين درجة ، تدرجت من البداية حتى عصرنا الحالى فهم يرجعون سلسلتها الى محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وجبريل — عليه السلام — حتى يصلوا بها الى الموجود الأول ، أى الى ذات الله — سبحانه وتعالى — وبهذا يتمتع الزعيم الروحى بسلطة مطلقة وينال أصحاب الدرجات مكانتهم وهيبتهم كل حسب الدرجة التى وضع فيها •• ثم يمضى المؤلف فى شرح الطرق المختلفة فى الخلوات ، وبيان أمكنتها ، فذكر أنهم كانوا يجتمعون فى بادىء الأمر فى المساجد ثم اتخذوا أماكن خاصة لخلواتهم ، وأخيرا بنوا زوايا للدراويش حيث انفصلوا فيها عن الحياة الاجتماعية ، ومن بين ما استعملوه فى هذه الخلوات : الموسيقى والرقص على الرغم من ترفع المتقين عنها ، وتحريمهم — طبقا لرأى بعض العلماء — سماع الموسيقى ، وممارسة الرقص أو مشاهدة الراقصين • نعم ! لقد وجد من بين الدراويش من طبق تعاليم القرآن الكريم ومنهم من أهملها ، كذلك وجد فى عالمهم ممارسات دينية مختلفة ، تدرجت من قمة الفكر حتى أدنى درجات السحر والخزعبلات •

الدراويش فقراء يأكلون مما يتصدق الناس به عليهم فى صوامعهم ؛ وقد يبلغون فى زهدهم — أحيانا — درجة اللاشعور ، بحيث يمشون على الجمرات المتوهجة ويبلعون المسامير والأفاعى ، ويباشرون أعمال السحر • وتدل هذه الأعمال فى واقع أمرها على أنها ظاهرة غريبة على المسلمين ، جاءتهم من الأديان الآسيوية ، ومن الشرق الأقصى •

كما انتشرت زوايا الدروايش فى بلاد الاسلام ، لكنهم أصيبوا بنكسات فى العصر الحديث ، بسبب صراعهم الحزبى ، ومعارضتهم للتيار الحضارى ، وثوراتهم ضد السلطة ، اذ صدر أمر فى تركيا فى عام ١٩٢٥ بتحريم التنظيمات الصوفية ، غير أنه تكون نظام خاص للدروايش اتخذ — من حيث قيامه على أسس سياسية ، ومجموعات تبشيرية ، وأفكار اجتماعية — النموذج الذى أسسه السنوسى فى طرابلس طابعا له بحيث مزج جانب التصوف بما أثر عن النبى — صلى الله عليه وسلم — • سعى هذا الاتجاه الى اثبات وجوده بمحاولة تطبيق تعاليم النبى — صلى الله عليه وسلم — فى مجالات الدولة : السياسية والعسكرية والاجتماعية ، ولذا فهو مهتم بالسياسة والتجارة وتوطين البدو ، ولا زال هذا الاتجاه حيا فى تركيا •

٧ — فى مجال ما قبل الفلسفة :

ظهرت مسائل لها صلة بالفلسفة فى مجال العقيدة الاسلامية ، مثل : حرية الارادة ، والعلاقة بين ما يريده الله ، وبين ما يباشره الانسان من أعمال (أفعال العباد) ، ولم يكن الاختلاف بين دين الله الموحى به ، وبين التأملات الفكرية كبيرا فى بادىء الأمر ، كذلك كان الاختلاف ضئيلا بين الفلسفة والدين ، فاذا كان مجال العلم هو عالم الظواهر ، ومجال العقيدة عالم ما وراء المحسوسات ، فسوف يلتقيان قطعا فى « الميتافيزيقيا » — وهو ما وراء المحسوس — لأن كلا من الدين والفلسفة فى بحثهما عن الحقيقة الأولى يصلان الى نتائج « ميتافيزيقية » •• فمن يقرأ « الميتافيزيقيا » ، لا يرى هنا تصدعا ولا تشققا • كما أن هناك ناحية أخرى تجمع بينهما ، ألا وهى مفهوم « المطلق » ، الذى يجب أن يشكله كل فيلسوف ، لأن حكمه يحتاج — لكى يكون صحيحا — الى أسس كافية للوجود • فما بين « مطلق الميتافيزيقيا » والله الدين ، ليس الا اختلافا فى التسمية ، لأن هنا علاقة وجود مشتركة •

لم يذكر القرآن الكريم كل الأدلة التى تؤكد وجود الحقيقة الأولى ، بل أشار الى بعضها تاركا للعقل الانسانى مجالا للتذكر والتفكر والبحث ، وقد كانت الفلسفة خير معين للعقل على السير فى هذا الطريق ؛ فقد ساعدت فى فهم بعض النصوص العقيدية فى الاسلام ، وصاغتها صياغة فلسفية ، فوضحت مضمون العقيدة وعبرت بها من مجال التسليم العاطفى الى دائرة الفهم ، والاقتناع العقلى • وبهذا دخلت الفلسفة فى مجال الحياة ، فقدمت خدمات للعقل والحقيقة والاحسان والجمال المقدس ، اذ رفض الفيلسوف المسلم أن يكون عمله شيئا آخر غير الدين حتى فى مجال التفريق بين البحث فى الطبيعة ، والنظر فيما وراءها • ثم يمضى المؤلف فى بيان عمل الفلاسفة المسلمين وجهودهم لخدمة الدين من زاوية الفلسفة ، ومبينا اختلاف طريقتهم وأسلوبهم فى بحث الظواهر الكونية عن تعبير القرآن الكريم عنها كدليل على وجود الله ، ثم يقول :

« فالفيلسوف يصيغ مفاهيم مجردة ، بينما الدين يذكر رموزا مرئية ، كذلك نجد فى جانب الفلسفة : معلم وباحث وتلميذ ؛ بينما فى جانب الدين : مقدسات ، وأنبياء ، وبيوت للعبادة » ••

على الرغم من جهود الفلاسفة فى شرح المبادىء الاسلامية بأسلوب فلسفى متوخين بذلك خدمة الاسلام ، فقد نتج عن عملهم ازدياد عدد الداعين الى الحرية الفكرية ، وأدى ذلك الى ظهور بعض الزنادقة ، الذين ادعوا أن القرآن ليس هو المرجع للحياة والفكر والشعور ، فافتتن الباحثون عن الحياة — وخاصة فى فارس — بالأبحاث القديمة عن نشأة الكون ، فسلموا بالمبادىء والأفكار الفلسفية فى هذا المجال •

نشأ النزاع بين الفلاسفة والعلماء بسبب جنوح الفلاسفة فى تفسير الكون وما بعد الموت تفسيرا لا يتفق مع مفهوم العلماء لها ، ووصل الخلاف فى بعض الأحيان الى حرق مؤلفات الفلاسفة واضطهادهم ، وأحيانا دفع بعضهم حياته ثمنا لرأيه المخالف لما عليه الجمهور ، كما حدث للحلاج عندما قال :

« •• أنا الحق •• أنا هو الذى أحبه ، اذا رأيتنى فقد رأيته ، واذا أردت أن تراه فانظر الى •• » •

استمر النزاع بين المبادىء وتفسيرها ، أو بين الايمان والداعين

الى حرية الفكر ، اذ أن لدى معظم الفلاسفة ايمان بالله قائم على أدلة عقلية ، فهم حاولوا البحث بين معارف كلية عن أدلة لوجود الله وأرادوا أن يصل الانسان بنفسه وعن طريق عقله — بمساعدة ما حوله من مظاهر كونية ، هى فى حقيقتها تمثل معه وحدة كلية — الى الله ، اذ خلف هذا توجد الحقيقة الدينية التى يدافعون عنها بحماس منقطع النظير ، وهى أن الله والعالم واحد .

كون الاسلام وحدة ، لا يمكن أن توجد فى عالم الفلسفة ، القائم على مجهودات فردية متأثرا بالوحدات الحضارية الصغيرة التى لا يمكن فصلها عن شخصية المفكر ، فقد صهرت المملكة الاسلامية حضارات مختلفة الأنواع ومتعددة الاتجاهات — فارسية وتركية ومغولية وسورية وفلسطينية ومصرية وهندية وافريقية (شمال أفريقيا) وأسبانية — لكن الطقس والتضاريس الجغرافية — صحراء واسعة ، وسماء زرقاء ، وشمس ساطعة محرقة ، واللانهائية ، والتحديد فى نفس الوقت — ساعدت على ظهور السحر والزهد والتصوف ، لأن الروح الشرقية الغارقة فى الخيال شدت الشرقى فى كل أوقاته ، وجعلته ملازما للوحى فى كل ما يباشره من أعمال يومية ، فأنتج من عالمه الدينى فلسفته ، وشعره ، ومثله الحضارية ، كما خرجت أساطير عن الكون من تجاربه القديمة .

٨ — أساطير عن خلق العالم :

سرد المؤلف الأساطير التى شاعت بين الناس عن خلق العالم ، فذكر أنها تحكى أن أول ما خلق الله هو اللوح المحفوظ ، ثم القلم ، ثم أمر القلم بكتابة ما سيحدث فى العالم ، ثم خلقت السماء والأرض بما عليها من جبال ووديان ونباتات ... الخ . وفصل القول فى وصف كل شىء على حدة ، ولما كان هذا كله لا يخرج عن كونه أساطير حسب وصف المؤلف لها ، ولم يربط بينها وبين مصادر الاسلام ، فقد تركناها دون عرض لعدم الفائدة منها فى منهجنا .

٩ — تنوع القوى الفكرية :

تدل هذه الأمثلة — وهى ما سرده من أساطير فى الفصل السابق — على مدى قوة تأثر حضارة المسلمين الفكرية بفلسفة السابقين ، ومدى تقبلهم لآرائهم فى نشأة الوجود ، فالمسلم يعتقد أن مسار حياته قد

حدد قبل وجوده ، وتدور أهمية المسألة على ظهور ما كتب عليه فى الأزل فى عالم الواقع المحسوس • وهنا استوطنت الصوفية والفلسفة ، والتأملات الفكرية ، غير أن هذه الاتجاهات كانت ضعيفة التأثير — أولا تأثير لها البتة — فى أفكار علماء الدين ، لأن هدفهم انحصر فى الدفاع عن تعاليم القرآن الكريم ، فاختفت مشاكل الوجود ووحدته من مجالسهم ، لأنهم تركوها جانبا ، اعتقادا منهم أنها لا تدخل فى نطاق بحثهم وبتعبير أدق لا يجوز لهم الخوض فى مثل هذه المسائل • أما الفلاسفة فقد أبدوا اهتماما بالمبادىء الأساسية لصورة الكون فى مجالات الحضارات الأجنبية ؛ كى يوفقوا بينها وبين المبادىء الاسلامية •

يرجع الفضل فى بناء المسلمين حضارتهم الزاهرة الى المصادر المتعددة التى أثارتهم وحركتهم لسير فى طريق تكوين هذه الحضارة ، فقد خلق الصراع الفكرى حركات حضارية مختلفة فى المملكة الاسلامية فتطورت الحضارة الاسلامية وتبوأت مركزا مرموقا بين الحضارات فى ذلك الوقت ، كما بدأ الدين فى اتخاذ موقف تجاه صيغ وأشكال الحضارات الفكرية ، وعلى الأخص تجاه الفلسفة الكلاسيكية الاغريقية فقامت مناقشات حادة ؛ كان لها أثر فى تكوين الانسان المسلم فكريا وثقافيا • فلو تحدث المرء عن الفلسفة من جانب واحد فقط ، وهو أنها كانت تجميع لفلسفات الشعوب الأخرى ، فلسوف يدرك أنها منحت المسلمين قوة لا تقدر وأنها قوت جانبهم فى صراعهم السياسى •

لقد أظهروا قوة عجيبة فى هضم الفلسفات الأجنبية وتحويلها الى فلسفة اسلامية ، وتلك ناحية تدين لهم أوروبا بها ، لأنهم بعدما حولوا الفلسفة والمعارف الأجنبية الى معارف وفلسفة خاصة بهم ، عبرت فلسفتهم هذه الى أوروبا عن طريق : أسبانيا ، وجنوب ايطاليا ، فحددت طريق تطورنا الفكرى فنحن لم نعرف أرسطو الا عن طريق المسلمين •

١٠ — معالم التطور فى الحضارة الفكرية الاسلامية :

تأثرت أفكار القبائل البدوية عن الكون ومظاهره فلسفيا فى عهد الأمويين (٦٦١ — ٧٥٠ م) بالنظريات الفكرية التى كانت معروفة فى العالم آنذاك ، فقد وجدت الأفكار اليونانية والمسيحية — وخاصة زهد ورهبنة العالم الغربى — طريقها الى مصر وسوريا ، وأثرت على الحياة الباطنية •

ازداد أثر الثقافات الأجنبية فى كل مجالات الفكر فى العهد العباسى ازديادا مطردا ، وخاصة فى مجالى الفن والفلسفة ، فبجانب الأفكار المسيحية واليونانية ، دخلت أيضا الهندية ، وفى مقدمتها الفارسية ، فقد خرجت الفلسفة الاسلامية فى القرن التاسع الميلادى من فارس ، حيث وجد لأول مرة « زنادقة » بين رجال الدين والصوفيين ، فتعقبهم العلماء والفقهاء فكريا وقضائيا • وبهذا ظهرت أول موجات الصراع الفكرى ، لكنه وان لم يكن صراعا مماثلا لما حدث فى أسبانيا فى عصر محاكم التفتيش ، الا أنه خلق هوة سحيقة فى المجتمع ، وأحدث تصدعا فى الوحدة الحضارية التى شيدها الاسلام بين أفراد المجتمع •

لم يجمع هارون الرشيد فى بلاطه الفنانون والشعراء فقط ، بل كان فيه أيضا فلاسفة وصوفيون ودراويش ، فتمتع الأطباء وعلماء الطبيعة بحرية فى البحث فى مجال الكون والطبيعة ، حيث كانوا واقعين تحت تأثير الفلسفة اليونانية •

تبوأت أفكار أرسطو — رغم الخلاف فى تقييمها — مكانا مرموقا فى المدارس الفلسفية ذات الاتجاه الدينى ، فقد بدت فى أول الأمر غير متعارضة — نسبيا — مع الاسلام ، على الرغم من ظهورها فى ثوب مادى للانسان الشرقى ، الذى يتمتع باحساس مرهف وقوة روحية فياضة ، فصيغت الأفكار اليونانية التى قبلتها المدارس الدينية بصبغة اسلامية ، وصارت فكرا اسلاميا أصيلا •

كان المفكرون — وعلى رأسهم المثقفون ثقافة فلسفية — يبعدون أنفسهم من دوائر الفكر الليبرالية ، وفى مقابلها تطور فكر آخر مضاد ، نبت فى مجال الصوفية حيث وجد تربة خصبة فى المنطقة الفارسية موطن تقديس النار قبل الاسلام • فبذلت مجهودات جبارة للتوفيق بين الاتجاهات الفكرية المتعارضة التى عمت المجتمع الاسلامى فى عهد الدولة العباسية ، غير أنها حملت معها أسباب ضعف العقيدة الاسلامية داخل المجتمع •

كانت المدرسة العليا فى بغداد فى عهد السلجوقيين تمثل المركز الفكرى ففيها ظهر الغزالى كأكبر محلل للمشاكل العلمية والفلسفية ، اذ انتشر فى عصره التصوف الايجابى ، وتغلغلت الأفكار الأجنبية فى مجال الفكر الاسلامى ، كما اشتد ساعد العلماء والفقهاء ورجال

الدين فى الدفاع عن الاسلام ضد التيارات الأجنبية فضبطت المدارس الفقهية قواعد التشريع وحكمت صيغتها ، ووضع ابن سينا — الايرانى النشأة (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) — نطاقا فكريا تأمليا ، فجاء الغـزالى (١٠٥٨ — ١١١١ م) فبنى هيكلا للسلوك العملى • اذ كان يركز دائما على الجانب الداخلى فى الانسان ، ويميل الى النواحى الروحية ، فترك المسائل العقلية دون حل لمن جاء بعده •

انزلقت الفلسفة بعد ابن سينا الى بحر من اللغوبات اذ كان لهجوم الغزالى عليهـا أثر كبير فاضطهد الفلاسـفة ، كما اضطهد الصوفيون ، الذين تأثرو بالاتجاهات الفلسفية ، ودفع بعضهم حياته ثمنا لاعلان اتجاهاته الفكرية التى كانت مخالفة لمـا عليه جمهـور الفقهـاء •

تأثرت الفلسفة الاسلامية فى أسبانيا بالفكر اليهودى ، وكان مرجعها الأصلى فى القرن الثانى عشر الميلادى :

— ابن باجه بنظـريته فى التحـرر الذاتى ، المـأخوذة من الأفلاطونية الحديثة •

— ابن طفيل ، بهروبه من الحياة ، وشكه فى الأديان •

— ابن رشد ، بأسلوبه الدقيق فى شرح فلسفة أرسطو •

أثرت الفلسفة الاسلامية فى أسبانيا — وخاصة فى عهد بنى مرين — على الفكر الأوروبى ، دون أن يكون لها أثر فى داخل البلاد الاسلامية ذاتها ، اذ تقهقرت الفلسفة أمام الفقهاء وعلماء الدين منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، وتقوقعت فى مجالات خلفية ، ظهرت منها بين الحين والآخر أصوات ذات أهمية ودلالات فكرية فى المجال الفكرى ، ويدل ما أثبتته دوائر المعارف على أن المؤلفات الفلسفية فاقت مؤلفات كل الفروع الثقافية التى تعرضت لهجوم الفقهاء وعلماء الدين ، فقد وضع ابن خلدون فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى أهم الأسس فى تاريخ الفلسفة ، ففى عصره كانت الحضارة الفكرية قد هضمت كل ما صب فيها من الروافد المتعددة عبر القرون المـاضية ، سـواء جاءت من اليونان أو من الهند أو من فارس ، أو كان من انتاج المفكرين الأحرار ، أو من علماء الدين المحافظين أو المتصوفين أو كان مصدره اليهودية والمسيحية •

اتجهت الحياة الثقافية الاسلامية منذ عام ١٥٠٠ م فى اتجاهات متعددة فأخذ الفارسيون طريقا خاصا بهم ؛ واختار الأتراك سبيلا آخر ؛ كما عبرت شعوب غرب آسيا مسلكا يختلف عن هذا وذاك .

شيد العثمانيون حضارتهم الخاصة ، فاتخذوا استانبول مركزا لها ، فحث سليمان القانونى العلماء والفلاسفة على البحث والمناقشة وشجعهم على ذلك بالمنح والعطايا . وعلى الرغم من موقف السلطان بجانب علماء الدين ، فقد نال البحث العلمى الحماية والتشجيع ، كما اعترف علماء الدين بالفلسفة فى حدود خاصة داخل الاطار الأخلاقى ، فتأثر بها المفسرون ، كما خضعوا أيضا للاتجاهات الصوفية .

اتحدت الأفكار الهندوسية والزاردشتية فى عهود القياصرة المغوليين فى الهند الاسلامية للتغلب على مشاكل الوجود ؛ فازدهرت هناك فى حوالى عام ١٦٠٠ م حركة فلسفية ، اذ ضم بلاط القيصر المغولى « أكبر »(١) .. (١٥٥٦ — ١٦٠٥ م) كثيرا من الفنانين والعلماء ، فتأسست مدرسة فلسفية ، احتضنت كل المفكرين الليبراليين فاحتقرت الطبقات الدنيا من المفكرين ، كما أهملت كل التفسيرات والشروح وأصبحت شمال الهند ملجأ للهاربين السنيين من اضطهاد الشيعيين فى فارس .

---

(١) هو جلال الدين أكبر : من أشهر ملوك الدولة المغولية ، تولى عرش هذه المملكة الاسلامية وهو شاب فى مقتبل العمر فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى (١٥٥٦ م) وظل حاكما قويا لها حتى عام ١٦٠٥ م . كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه رزق عقلا كبيرا هداه الى البحث والدراسة عن طريق السماع ، فجمع حوله صفوة من رجال الأديان المختلفة الموجودة فى مملكته ورتب لهم عقد جلسة للمناقشة والبحث فى القضايا الدينية فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فكانت هذه الجلسات مسرحا لطرح عقائد متباينة ، وتصورات دينية مختلفة وآراء متنافرة وأفكار متضاربة فى أسلوب جدلى عنيف ، سيطرت عليه رغبة كل فريق الانتصار لدينه ودحر الأديان الأخرى ضاربين الصفح عن جميع الاعتبارات الأخرى التى ينبغى الالتزام بها عند مناقشة أصحاب الأديان المختلفة وغافلين عن القواعد السليمة التى يجب الحرص عليها فى مثل هذه الأحوال للوصول الى التعاليم الدينية التى تتنافى مع طبيعة الانسان والتى تحقق للفرد الأمان والاطمئنان فى الدنيا والسعادة فى الآخرة : (راجع كتابنا « أثر البيئة فى ظهور القاديانية ») .

استعادت فارس مركزها فى عهد الدولة الصفوية ؛ فأصبحت فى مجال الفكر فى مقدمة البلاد الاسلامية ، وبلغت الحضارة الشيعية الفارسية فى عهد الشاه عباس ذروة مجدها ، حيث تفتحت براعم التراث ، فأيقظت همم العلماء فى وضع أسس جديدة للنظام الفكرى ، غير أن الاهتمام بالفلسفة كان محدودا نسبيا فى هذه النهضة الفكرية الا أن الظروف منحتها بين الحين والآخر فرصة لشرح بعض مشاكل الوجود .

وجملة القول أن الفلسفة الاسلامية لعبت دورا جانبيا فى جميع أرجاء العالم الاسلامى — باستثناء الهند — منذ الزحف المغولى حتى القرن السابع عشر الميلادى ثم بدأ الأثر الأوروبى يظهر منذ عام ١٨٠٠ م فى صورة حركات اصلاحية فى الهند وفارس وتركيا ، اتخذت بادىء الأمر مجال التكنولوجيا والتجارة والدستور حقلا لنشاطها ثم ما لبث أن وجدت النظريات الفلسفية — من خلالها عن طريق الجوانب العملية — طريقها الى المعقل الاسلامى ، ولم يأت عام ١٨٨٠ م الا وكانت رياح الاصلاح قد عمت جميع المجالات حتى اتجه كثير من علماء الدين الى تغيير مصطلحاتهم لتتمشى مع روح العصر .

غير أن النزاع الدبلوماسى والعسكرى كان سببا فى ظهور معارضة قوية بعثت القوة والنشاط فى صفوف المحافظين ، فأرسلوا صيحاتهم منذرة ومحذرة من ضياع الاسلام ، لأن كثيرا من المسلمين كانوا قد أهملوا التعاليم الاسلامية . ومنذ عام ١٩٠٠ م ازداد الحقد والكراهية ضد الأوروبيين بسبب السياسة الاستعمارية فى العالم الاسلامى ، فتعرضت جذور الثقة بالنفس فدفعتهم الى رفض كل ما هو غير اسلامى ، وطالبوا السلطة الاستعمارية بمساواتهم بالشعوب المسيحية الأخرى ، فأصبحت المنطقة من الهند حتى مراكش جبهة واحدة كذلك ظهرت تيارات اسلامية تأغطت للاسلام قوة فى أوروبا نتج عنها احتكاك عنيف بين المسلمين والمسيحيين .

تنقسم حقب الفلسفة الاسلامية الى أربع :

* بدأت الأولى فى حريم العقل العربى ، وتميزت بالتغيير والتفاعل الذاتى .

* ثم أقصيت عن الساحة وتراجعت الى الظل بواسطة التأثير

والنفوذ الايرانى الذى استمر حتى سقوط بغـداد بعدما أذيبت قضايا وتيارات فكرية فى داخل المجتمع الإسلامى عبر مئات السنين .

* واشتملت الحقبة الثالثة على تيارات فكرية محلية ؛ ظهرت بعد الغزو المغولى فى كل قطر على حدة ؛ من تركيا حتى أعماق البلاد الاسلامية .

* أما الحقبة الرابعة التى تمتد حتى العصر الحاضر ؛ فهى التى تتمـيز بالصراع مع الفـكر الأوروبى والوقوع تحت تأثير نظرياته الفلسفية .

فاذا أريد الحصول على صورة واضحة لجوهر الفلسفة الاسلامية ، فينبغى أن نرسمها من واقع حياة وأفكار الحركات الاسلامية ذات الاتجاه الفلسفى ؛ ونستنبط ملامحها من حياة وأفكار الفلاسفة والباحثين عن الحق ... ثم يمضى المؤلف فى سرد معالم التفكير عند المعتزلة واخوان الصفاء ؛ كما يستعرض حياة وأفكار بعض الفلاسفة والعلماء ، وسوف نوجز الحديث عن بعض ما كتبه فى هذه الناحية استيفاء لغرض تحليل الكتاب اعطاء القـارىء صورة عن تفكير الكاتب فى مجالات المجتمع الاسلامى المختلفة .

المعتزلة(١) :

تعد المعتزلة احدى الحركات الاسـلامية ، التى مهدت لظهور

---

(١) عم جماعة من المسلمين وقفت موقفا وسطا بين آراء الخوارج والمرجئة حول مصير مقترف الكبيرة ، فلم تر كفره ، أو ايمانه ، بل ذهبت الى أنه منزل بين المنزلتين . اعتمدت على المنطق والقياس فى مناقشة القضـايا الكلامية . ومن أهم آرائهم التى اشتهروا بها :

(أ) مرتكب الكبيرة ليس كافرا ولا مؤمنا بل منزل بين المنزلتين .

(ب) حرية الانسان فى أفعاله بمعنى أنه ليس مجبرا كما ذهبت الى ذلك الجـبرية .

(ج) قالوا بخلق القرآن .

(د) نفوا الصفات . ولذا سموا بأهل التوحيد لأن الدافع الى نفى الصفات فهمهم لمعنى التوحيد الخالص .

ومن أشهر علمائهم :

واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد .

اللذين انفصلا عن مجلس الحسن البصرى .

الفلسفة فقد اشتهرت بتأسيسها الجدل العقلى فى المجتمع الاسلامى ، وتبوأت مركزا وسطا بين المؤمنين وغير المؤمنين فى مجال الدفاع عن العقيدة الاسلامية • كانت أسباب ظهورها سياسية — كالشيعة تماما — فقد قيل انهم امتنعوا عن تأييد على بعد مقتل عثمان ، وفى الوقت نفسه لم يحاربوه •• ثم بين المؤلف المسائل الأساسية التى أثارها المعتزلة ، كحكم مرتكب الكبيرة ، وأفعال العباد ، وخلق القرآن •• الخ • وربط بينها وبين الاتجاهات السياسية ، ثم ذكر أن المعتزلة لم يكونوا ليبراليين فى التفكير ولا فلاسفة ، ولا صوفيين ، بل كانوا رجال دين اتخذوا الأدلة العقلية أداة للتدليل على صحة آرائهم فى المسائل الدينية ، ومن هنا فهم لم يؤسسوا اتجاها فلسفيا ، بل نوعا من علم الكلام الاسلامى •

اخوان الصفا :

وقع الفكر الاسلامى منذ القرن الثامن الميلادى تحت تأثير تيارات فكرية أجنبية ، فاهتزت النظريات المختلفة عن الكون ، وطرق التفكير المتعددة فى المعتقدات المتوارثة ، والنظريات المسلم بصحتها فى المجتمع ، وفى ظل هذه المؤثرات وجد الشاكون والباحثون والمفكرون الليبراليين مبتغاهم ، واستمدوا منها عناصر وجود اتجاهاتهم الفكرية • وينتمى اخوان الصفا الى مجموعة من رجال الدين ، مالوا الى الاتجاه الليبرالى فى تفكيرهم ، فقد أرادوا الدفاع عن الاسلام ضد الطوفان الأجنبى ، ولكنهم فى نفس الوقت قبلوا أفكارا أجنبية من ديانات ومذاهب متعددة ، فأدمجوها فى عقيدتهم - ومن هنا أطلق عليهم الليبراليون : « جبناء » •• بسبب موقفهم المزدوج ، لأنهم أخفوا وجههم الحقيقى خوفا من السيف ، فهم يفسدون أرواح الناس •

تكون اخوان الصفا من فلاسفة سطحيين ، فبدا علماء الدين بالنسبة لهم شوكة فى العيون ، لأنهم — أى علماء الدين — يعارضون كل المعارف الفلسفية كما اشتبكوا أيضا مع أصحاب التيار العلمى المتطرف بسبب تهاونهم فى عقيدتهم فى سبيل الرأى العلمى ، وهكذا بدا لاخوان الصفا أن لتمسك بمركز الوسط عمل كبير ••• ثم يمضى المؤلف فى وصف رسالهم وتقسيمها العلم الى أربعة أقسام : علم المنطق ، وعلم الأجناس ، وعلم الطبيعة ، وعلم أرواح العالم ، أو علم الالهيات ، وفيها تختلط أفكار أرسطو باتجاهات الأفلاطونية الحديثة

فى تفسير مظاهر الكون ، وبعد أن يشرح فلسفتهم فى تفسير الأعداد وارتباطها بالله والأرواح والمخلوقات يقول :

« ان كتب اخوان الصفا خرجت فى وقت مبكر من المنطقة العربية ، ووصلت الى أسبانيا ، فكانت من العوامل الأساسية التى أثرت ، بل ودفعت الى ظهور دراسات وأبحاث فى مجال الطبيعة ، أما فى بغداد فقد أحرقت مؤلفاتهم مع مؤلفات ابن سينا فى عام ١١٥٠ م »(١) .

---

(١) وجه اخوان الصفا نظرهم الى جذب الجمهور أكثر من توجيهه الى الخاصة ، وطبع الجمهور يميل الى السطحية دون التعمق ، ولذا كانت آراءهم الفلسفية سطحية ، وكانت الحالة السياسية للعالم الاسلامى من الأسباب الرئيسية فى تحديد معالم اتجاههم الفلسفى ، واتباع منهجهم الفريد الذى التزموه فى اعلان آرائهم ، ففى القرن الرابع الهجرى كان السلطان فى مركز الخلافة — بغداد — لبنى بوية ، غير أن أسرا أخرى نازعتهم السلطة فى أماكن متعددة من أطراف المملكة الاسلامية ، ففى الأندلس كان بنو أمية ، وفى افريقيا : العبيديون ، وفى مصر : الاخشيديون ، وفى حلب : الحمدانيون ، وفى الجزيرة الفراتية : الشيبانيون ، وفى عمان والبحرين واليمامة : القرامطة ، وفى خراسان وما وراء النهر : آل سامان ، وهذا يدل على أن الأمر والسلطان أصبح مطلوبا لكل فرد ولكل جماعة فى الامبراطورية الاسلامية ، وعلى أنه فى متناول بعض الأفراد وبعض الجماعات والأسر وعلى أنه لا طاعة لخليفة الا بقدر انتفاع المطيعين له من صلتهم بالخلافة .

وطلب السلطان ، والرغبة فيه الى هذا الحد من شأنها التفريق بين أفراد الأسرة الواحدة ، فضلا عن أن يكون سببا فى انحلال وحدة الأمة المتكونة من عناصر متعددة ومن شأنهما كذلك حمل الناس على التفنن فى الأساليب الموصلة الى السلطان ، وفى أساليب الايقاع والكيد لمن بيده السلطان .

والدين كان — ولم يزل — من أشد هذه الأساليب أثرا لما له من صلة وثيقة فى تحريك العاطفة ، وبالتالى فى تأليف الأحزاب والجمعيات لغايات ، وهى التحكك بالدين .

ومما لا ريب فيه أن أواسط القرن الرابع الهجرى كان مسرح النشاط لاخوان الصفا فى بث تعاليمهم التى وصلت الى مسامع صاحب السلطان فى مقر الخلافة فى بغداد سنة ٣٧٣ هـ .. وكان اخوان الصفا قبل ذلك لا يجرأون على الظهور بتعاليمهم أمام الحكام وولاة الأمر ، وفى هذا القرن أخرجوا دائرة معارفهم وهى رسائلهم ، وانتشر تداولها فى المكتبات والمجالس .

* ولكن ما هو غرضهم ؟

قد يكون اخوان الصفا اعتقدوا حقا أن الشريعة تدنست بأقوال وتأويلات لا تتصل بها ، وأن الحكمة (الفلسفة) وحدها هى علاج هذا الطارئ =

الكـندى :

ولد الكندى فى بغداد فى أوائل القرن التاسع الميلادى ؛ وأقام فيها الى أن مات فى عام ٨٧٣ م وهو يعتبر أول فيلسوف عربى ؛ فقد اتجه فى أول دراسة له الى فلسفة أرسطو ؛ فشرح مؤلفاته ؛ واستخدم هذه المعرفة فى حل مشكل الفكر فى المجتمع الاسـلامى ؛ كما اهتم بالرياضيات وجعلها أساس كل العلوم .

ومع أنه كان يميل الى العلوم الرياضية أكثر من غيرها ؛ فقد ألف

= المشين . فدرسوا الفلسفة بناء عن هذا الاعتقاد ومزجوها بالدين لتحقيق هذه الغاية ، حتى يصلوا من وراء ذلك الى تطهير أنفسهم والصعود الى ملكوت السموات ، ولكنهم كتموا أسماءهم عن الناس حتى لا تتسرب الى الحكام خشية أن ينزل بهم العقاب ، لأن الخلفاء منذ عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) الى استقلال بنى بوية بسلطان فى خلافة المستكفى (٣٣٤ هـ) ، كانوا يميلون الى تأييد مذهب الفقهاء وأهل النص ، والاعراض عن المذاهب العقلية : مذهب المعتزلة . وآراء الفلاسفة . وقد حرم المتوكل بالفعل الظهور بهذه المذاهب فى المجالس وتداول تعليمها وتعلمها واشتد فى هذا التحريم فاخوان الصفا أرادوا أن يجمعوا بين الاشتغال بالحكمة وعدم التعرض للعقاب .

وقد يكون غرضهم الأول أن ينالوا فوزا سياسيا وأن تكون لجماعتهم سلطانا زمنيا بين هذه الأحزاب والجماعات والدويلات المختلفة التى تميز بها القرن الرابع الهجرى ـ لضعف السلطة المركزية وتقلقل بسبب تحكيم العناصر الأجنبية وتحكمهم ، فتكونوا باسم الاصلاح الدينى ... وألفوا رسائلهم فى تهذيب النفس واصلاح الأخلاق ، ودعوا الى نشر مذهبهم على أنه المذهب الصحيح الذى جمع مبادىء الدين والفلسفة الاغريقية ، أى جمع بين الوحى والعقل . وكتموا كذلك أسماءهم لئلا يضطهدهم صاحب السلطان أو أصحاب السلطان فى البقاع المختلفة .. ويبدو أن غايتهم الخفية والمهمة فى رأيهم هى الحصول على السلطان ، لأن اصلاحهم للدين وعلاجهم لتطهيره وتصفيته لم يكن اصلاحا يلتئم فى كثير من نقطه مع مبادىء الدين نفسه ، ولم يكن علاجا ينم عن رغبة التطهير الحقيقية .

ومن نظر فى رسائلهم لا يسعه الا أن يوافق أبا حيان التوحيدى : من أن اخوان الصفا كانوا يدينون بالمعارف الانسانية والديانات كلها سواء .. يرون أن أنبياءهم : نوح ، وابراهيم ، وسقراط ، وأفلاطون وزرادشت ، ومحمد ، وعلى ، وعيسى ، وحوارييه ، والعلويين فى نظرهم شهداء الايمان والعقل وهم بهذا مقدسون » .

(راجع الجانب الالهى . ج ٢ ص ٢٨ ـ ٣١) .

فى جميع المعارف ؛ اذ كتب ٢٣ كتابا فى الهندسة ؛ و٣٢ كتابا فى علم النجوم والفلك ؛ و ٨ كتب فى علم الحساب والموسيقى كما ترك عشر رسائل فى علم البصريات ؛ و ٢٢ فى الطب •

كانت مبـادئه الفكرية وآراؤه فى المعـرفة أسسا قامت عليها الفلسفة ، وخاصة فى فكرة الوساطة التى اعتمـد فيها على فلسفة أرسـطو(١) •

الفارابى(٢) :

اعتمد الفـارابى على فلسفة الكندى ؛ فطور نظرية المعرفة ؛

---

(١) لم يكن الكندى مؤلفا فحسب ، بل كان مع ذلك مترجما من أشهر المترجمين لكتب الثقافة الأجنبية فى عصر بنى العبـاس ، وكان مع ذلك مصححا أيضا لما ترجمه بعض السريان • ويعزى اليه ترجمة كتاب « فقه أرسطو » ولم يبلغ هذا الشأن الا بعد أن تعلم بعض اللغات الأجنبية وحذق فيها ويقال انه كان يتقن اليونانية بصفة خاصة •

ويحكى دى بور فى كتابه « تاريخ الفلسفة الاسلامية » ص ١٢٤ تعريب الأستاذ أبو زيد طبع مطبعة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٨ م : « أنه لم يقنع بترجمة كتب أرسطو ، بل درس ما ترجم منها وحاول اصلاحه وشرحه » •

وينقل القفطى عن أبى جلجل الأندلسى : أن الكندى « ترجم من كتب الفلسفة الشىء الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب العريض » •

والكندى خدم المأمون والمعتصم والمتوكل • الا أنه اضطهد فى زمن الأخير وصودرت مكتبته مدة طويلة ، عندما اشتدت العاصفة ضد أهل الرأى من المعتزلة ، وكثير من حاملى لواء الثقافة الأجنبية • فالتاريخ يحدث أن المتوكل لم ينهج على غرار المأمون فى تأييد مذهب الاعتزال ، بل ذهب الى حد كبير فى اعادة الكلمة لأهل النص وتحقيقا لذلك حمل فى قسوة على كل مخالف لهم •

ولما كان الكندى من قادة مذهب الاعتزال ، وله فى خدمته وخدمة الدفاع عن العقيدة مواقف مشهورة — أجلها الرد على بعض الفرق الدهرية التى كانت تنكر فى وقته الرسالة الالهية على أساس الاكتفاء بالعقل الانسانى فى الارشاد — لم يجد بدا من الفرار من بغداد عاصمة الخلافة وموطن الثقافات الى أطراف المملكة الاسلامية ، ويقال : انه لم يعثر منذ ذلك الحين على كنف يقيه شرور الأيام ولذا مات فى حالة سيئة (الجانب الالهى ج ٣ ص ٦٤/٦٥) •

(٢) هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابى • ولد من أب فارسى ، كان من قـواد الجيش فى مدينة وسيج فى الاقليم فاراب (اظرار) من بلاد التركستان فيما وراء النهر (سيحون) ولما شب تعلم فى =

والتصور الميتافيزيقى ، كما شرح كتب أرسطو وتوفر عليها حتى لقب بـ « المعلم الثانى » .

كان للعقل أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين ، لأنه كان سلاحهم فى الدفاع عن العقيدة ضد أصحاب الأديان الأخرى ، ولم يقتصر الأمر فى هذا على الفلاسفة ، بل استعمل العقل فى الدفاع عن الاسلام رجال الدين أيضا ، ومن ثم فقد استخدم الفارابى ما أخذه من « أرسطو » من أساليب عقلية ، لتنقية الفكر الاسلامى وتدعيمه ، فهو لم يكن أرسطيا ، يردد فكر أرسطو فقط ، بل استخدمه للدفاع عن الاسلام فأصبح بذا خادما لعلوم الدين .

لم يكن هدفه الأول فهم نظام الكون ، بل وضع منهج للفكر ، ورغم هذا فقد وجدت عنده ملامح الخيالية ، والميل الى الناحية الروحية ... ثم يمضى المؤلف فى شرح آرائه فى معرفة الله والكمال

= بغداد الآداب والعلوم العربية وتتلمذ على الطبيب النصرانى : يوحنا بن جيلان المتوفى فى بغداد "يام المقتدر ، وأخذ عنه الفارابى فى مدينة (حران) وتعلم صحبة أبى بشر ، حتى النصرانى النسطورى ، الذى اشتهر بترجمته للكتب اليونانية (وتوفى فى بغداد فيما بين ٣٢٣/٣٢٩ هـ) ثم كان من أتباع مدرسة « مرو » الفلسفية التى كان يغلب عليها الطابع الميتافيزيقى .

وبعد اقامة طويلة فى بغداد رحل عنها — اثر اضطهادات سياسية كانت تحصل فى الفينة بعد الفينة ضد الخلفاء ، ومن فى خدمتهم من الوزراء والعلماء والقواد — متوجها نحو حلب ، وهناك أقام مدة أخرى فى كنف سيف الدولة (أبى الحسن ، على اعيجاء ، عبد الله بن حمدان التغلبى) . وقد ذهب اليه فى خلافة الراضى ولكن حياته هناك كانت متأثرة بموجة من الزهد والتصوف سيطرت عليه فى سنواته الأخيرة ودفعته الى الاستعاضة عن متع الدنيا ولذائذها ، بالتفكير الفلسفى الصوفى ، وبالعزلة عن الجماعة وربما ما حصل له من ضطهاد بذر فى نفسه اليأس ، وكون عنده نظرة التشاؤم ، وهما — غالبا — من دواعى النفرة من الجماعة ، والاسترسال فى التفكير والاكثار من الخلوة بالنفس ، ومناجاة « من عنده الأمر كله ، وملك الحياتين وهو الله سبحانه وتعالى » .

وبعد اقامته فى حلب مدة أخرى اثر رحيله عن بغداد ذهب صحبة سيف الدولة فى فتحه صقلية ، ووجد بها هناك نهاية أجله ، تقريبا فى رجب ٣٣٩ هـ (ديسمبر ٩٥٠ م) وكان عمره فى هذا الحين يقرب من الثمانين (الجانب الالهى ... جـ ٢ ص ٨٩) .

المطلق ، وعلاقة العـالم به ، وحرية الارادة عند الانسـان ... و ... ق .. الخ .

على الرغم من أن الفارابى كان يميل الى الصوفية ، الا أنه رفض الزهد كما يتصوره متصوفة المسلمين كطريق الى « المعرفة الالهية » اذ هو يرى أنه لا يمكن الاقتراب من هذا الا بالقوة الادراكية للمعرفة التى منحها الله للانسان المخلوق ، وبهذا يتعارض مفهوم المعـرفة الاشراقية عند الصوفية مع المعرفة الادراكية . فاذا هيأ الله وسيلة الاشراق لعقولنا — أى وضع فيها قوة ، ومكنها من العمل فى هذا المجال — فيجب أن تفهم الخواطر العامة على أنها نتيجة لارادته ، وأن تتفق هذه الخواطر مع كينونة الأشـياء فى الخارج ... وبعد أن يشرح أدلة الفارابى على هذه النظرية ، ويبين أنها ربطت الجوهر الالهى بالأشياء المـادية فى اطار المعرفة يقول : « كان المنطق عند الفارابى هو تدريب الفكر ، وعليه بنى فلسفته النظرية التى نبعت من علم الطبيعيات ولكنها احتوت على مبـادىء روحانية وميتافيزيقية ، ثم أتبعهـا بالفلسفة العملية ، وهى الأخلاق ، التى تنظم كل نواحى الحياة ، وقد أكد من خلال هذا كله « الحقيقة الدينية » وهى الايمـان بقدرة الله وعـدالته ، والاعتراف بالوحدة ، ويقصد بالوحدة : وحدة العقيدة التى لا تنفصل عن الحياة الاجتماعية والسياسية فى الاسلام .

ابن سينا(١) :

كان تلميذا للفارابى ، وأصبح أستاذا للفكر اليونانى والحضارة

---

(١) هو الشيخ الرئيس ، أبو على بن سينا . تحدث عن نفسه — كما نقل أبو عبيدة عبد الواحد الجورجانى ، تلميذه ومعاشره مدة تقرب من ربع قرن فيما يلى : ان أبى كان رجلا من أهل بلخ ، وانتقل منها الى بخارى فى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها « خرميثن » من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى ، وبقربها قرية يقال لها « افشنه » وتزوج أبى منها بوالدتى — استارة كما يذكر ابن خلكان — وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى .

ثم انتقلنـا الى « بخارى » وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى من العجب .

وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ، ويعد من الاسماعيلية . وقد سمع =

. . . . . .

= منهم ذكر « النفس » و « العقل » على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم وكذلك أخى وكان ربما تذاكرا بينهما وأنا أسمعهما وأدرك ما يقولانه ولا تقبله نفسى · وابتدءا يدعوانى أيضا اليه ، ويجريان على لسانهما ذكر « الفلسفة » و « الهندسة » و « حساب الهند » وأخذ والدى يوجهنى الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه ·

ثم جاء الى بخارى « أبو عبد الله الناتلى » وكان يدعى « المتفلسف » وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه · وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه الى « اسماعيل الزاهد » وكنت من أجود السالكين · وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم به · ثم ابتدأت بكتاب « ايساغوجى » على الناتلى · ولما ذكر لى حد « الجنس » أنه : هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب « ما هو » فأخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ! وتعجب منى كل العجب · وحذر والدى من شغلى بغير العلم · وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيرا منه ! حتى قرأت ظواهر المنطق عليه · وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة ·

ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم « المنطق » وكذلك كتاب « اقليدس » ـ فى الهندسة ـ فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ·

ثم انتقلت الى « المجسطى » ولما فرغت من مقدماته ، وانتهيت الى أشكال الهندسة قال لى الناتلى : « تول قراءتها وحلها بنفسك ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه » ! وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب · فكم من شكل مشكل ما عرفه الى وقت ما عرضته عليه وفهمته اياه ·

ثم فارقنى الناتلى متوجها الى « كركانج » واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح ، من الطبيعى والالهى · وصارت أبواب العلم تتفتح على ·

ثم رغبت فى علم « الطب » وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه · وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة · فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب · وتعهدت المرضى فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف · وأنا مع ذلك أختلف الى الفقه وأناظر فيه · وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة ·

أما عن التأليف فيقول :

وكان فى جوارى رجل يقال له : « أبو الحسين العروضى » فسألنى أن أصنف كتابا جامعا فى هذا العلم · فصنفت له « المجموع » وسميته =

الاغريقية فى الشرق • درس فى بدء حياته علوم الدين ثم الفلسفة والطب ، وألف وهو فى ريعان شبابه كتاب : « الحاصل والمحصول » فى ١٨ مجلدا ، تناول فيه أسس المنطق وعلم الطبيعة والرياضيات والميتافيزيقيا • وظل هذا الكتاب المرجع الأساسى للطب والفلسفة على امتداد عدة قرون ، كما كان له تأثير على علم الكلام فى القرون الوسطى ، اذ بدأت ترجمة مؤلفاته الى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، الا أن علماء الدين الاسلامى رفضوا فلسفته بحجة أن فيها معالم الزندقة •

= به ، وأتيت فيه على سائر العلوم ـ سوى الرياضى ـ ولى اذ ذاك احدى وعشرين سنة من عمرى •

وكان فى جوارى أيضا رجل يقال له : « أبو بكر البرقى » ـ خوارزمى المولد فقيه النفس ، متوحد فى الفقه والتفسير والزهد مائل الى هذه العلوم ـ فسألنى شرح الكتب له • فصنفت له كتاب « الحاصل والمحصول » فى قريب من عشرين مجلدة وصنفت له فى « الأخلاق » كتابا سميته كتاب « البر والاثم » وهذان الكتابان لا يوجدان الا عنده ، فلم يعد يعرفهما أحد ينتسخ منهما •

ثم مات والدى ، وتصرفت بى الأحوال ، وتقلدت شيئا من أعمال السلطنة ودعتنى الضرورة الى الارتحال عن « بخارى » والانتقال الى « كركانج » ـ قصبة خوارزم ـ وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيرا • وقدمت الى الأمير بها ، وهو على بن مأمون ، وكنت على زى الفقهاء اذ ذاك • وأثبتوا الى مشاهرة ما يقوم بكفاية مثلى •

ثم دعت الضرورة الى الانتقال الى « نسا » ومنها الى « باورد » ومنها الى « طوس » ، ومنها الى « شقان » ، ومنها الى « سمنيقان » ومنها الى « جاجرم » ـ رأس خد خراسان ـ ومنها الى « جرجان » وكان قصدى الأمير « قابوس » ـ شمس المعالى ، قابوس بن أبى طاهر شمكير ابن زياد بن وردان شاه الجبلى ، أمير جرجان ، وبلاد الجبل (طبرستان) ـ فاتفق أثناء هذا أخذ « قابوس » وحبسه فى بعض القلاع ، وموته هناك •

ثم مضينا الى « دهستان » ومرضت بها مرضا صعبا ، وعدت الى « جرجان » فاتصل أبو عبيدة الجورجانى بى وأنشأت فى حالى قصيدة ، فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعى * لما غلى ثمنى تدمت المشترى

••• هذا ما يرويه ابن سينا عن نفسه ـ نقلا عن كتاب : « أخبار العلماء بأخيار الحكمان » للقفطى ص ٢٦٩ الى ٢٧٢ طبع مطبعة السعادة •

(راجع الجانب الالهى ••• ج ٢ ص ١٥٥ ـ ١٦٠) •

بين المؤلف آراء ابن سينا في مجالات : علم النفس ، وعلم الطبيعة والمنطق ، ومسائل ما وراء الطبيعة وعلاقتها بالعالم المشاهد ، والطب وخاصة الطب النفسي ، ثم يذكر أنه لم يكن فيلسوفا وممارسا للطب فحسب ، بل كان أيضا مؤلفا ، اذ دون قلمه أكثر من مائة كتاب ، وأدى نشاطه العلمي لواسع الى الاتصال بكل علماء عصره تقريبا ، ومن هنا سمي : « أمير الفلاسفة » .

الغزالي(١) :

تناول المؤلف حياة الغزالي ، ودراسته ، وتدريسه في المدرسة النظامية ثم ذكر أنه لم يهتم فقط بالمسائل التشريعية ، بل اشتغل أيضا بالفلسفة والرد على الفلاسفة ، وبالمشاكل العقدية ، وبعد أن يبين فترة عزلته ودوافعها يذهب الى أنه اتجه بعدها كلية الى ناحية التصوف ، فاطمأن الى ما يقره القلب حتى انه عندما مات في عام (١١١١ م) كان قد رسخ في الأذهان أنه أستاذ الصوفية ومعلمها ، الذي انكشفت له الرؤية الباطنية ، اذ وجد الطريق الى الله ، وأدرك أن المرء يجب عليه اخلاء قلبه من كل شيء دنيوي ، كي ينال مغفرة الله ... ثم ينقل نصا تحدث فيه الغزالي عن أنواع الحب ، وحقيقة كل نوع وأثره ، مسلسلا اياها حتى يصل الى الحب لذات الله .

وفي معرض حديثه عن مؤلفاته ، يفصل القول في الحديث عن كتابه « احياء علوم الدين » — الذي قيل ان تأليفه استغرق تسعة عشر عاما — حيث وضحت فيه الأهداف الايجابية لتفكيره ، كما بانت فيه معالم ومقاصد آرائه الفلسفية ونظرته في الكون والوجود ، اذ عندما ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية اهتمت الدوائر العلمية في أوروبا — وخاصة في مجال علم الكلام — بآراء الغزالي وعكفت على دراستها ، كما اشتهرت أيضا آراؤه — بعد ترجمة مؤلفاته الأخرى الى اللاتينية —

---

(١) محمد بن محمد الغزالي الطوسي . أبو حامد ، حجة الاسلام : فيلسوف متصوف ، له مئات مصنف . مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس بخراسان) رحل الى نيسابور ثم الى بغداد ، فالحجاز فبلاد الشام ، فمصر ، وعاد الى بلدته . نسبته الى صناعة الغزل (عند من يقول بتشديد الزاي) ، أو الى غزالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف (الاعلام للزركلي) .

فى المنطق والميتافيزيقيا وعلوم الطبيعة ، وكان من أهم ما اشتهر به هجومه على الفلاسفة فى مسألة خلق العالم وقدم المادة .

ابن رشد(١) :

ولد محمد بن رشد فى قرطبة فى عام ١١٢٦ م ، وكان أبوه من كبار رجال الفقه ، فهيأ له دراسة العلوم الدينية والطب ، ولكنه مال الى دراسة الفلسفة والرياضيات . وفى عام ١١٨٢ م عينه الخليفة — وكان يميل الى دراسة الفلسفة — طبيبا خاصا له ، وارتبط بهذه الوظيفة تشجيع الخليفة له على دراسة الفلسفة ، فكتب تفسيرا لمؤلفات أرسطو ، مما أرضى الخليفة . فتمتع بمركز مرموق فى الدولة حتى عند من تولى الخلافة بعده ، غير أن رجال الدين اتهموه بالزندقة ، لأنه — حسب رأيهم — أفسد عقيدة الاسلام بقبوله لمنهج التفكير اليونانى . كان من جراء هذا الاتهام له نفى ابن رشد وتحريم دراسة الفلسفة .

اندلعت على اثر ذلك موجة من العداوة ضد الفلسفة ، فأحرقت كل كتب الفلسفة والمنطق ، وكان ذلك نهاية عصر التفكير الحر ، فجلس العقل فى قفص الاتهام ، وصدر مرسوم من الخليفة يقول :

« لقد خلق الله الجحيم لأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة بواسطة العقل وحده » .

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسى ، أبو اليد : الفيلسوف من أهل قرطبة يسميه الافرنج Averroàs عنى بكلام أرسطو وترجمه الى العربية ، وزاد عليه زيادات كثيرة وصنف نحو خمسين كتابا . وكان دمث الأخلاق ، حسن الرأى ، عرف المنصور قدره فأجله وقدمه ، واتهمه خصومه بالزندقة والالحاد ، فأوغروا عليه صدر المنصور فنفاه الى مراكش ، وأحرق بعض كتبه ثم رضى عنه وأذن له بالعودة الى وطنه فعاجلته الوفاة بمراكش ، ونقلت جثته الى قرطبة . قال ابن الأبار : كان يفزع الى فتواه فى الطب كما يفزع الى فتواه فى الفقه . ويلقب ابن رشد « بالحفيد » تمييزا له عن جده أبو الوليد محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٢٠ هـ) ومما كتب فيه : « ابن رشد وفلسفته » لفرح أنطون ، و « ابن رشد » ليوحنا قمير ، و « ابن رشد الفيلسوف » لمحمد يوسف موسى و « ابن رشد » لعباس العقاد (الاعلام للزركلى) .

مات ابن رشد فى عام ١١٩٨ م فى مراكش عن اثنين وسبعين عاما ، بعد أن استرد مكانته مرة أخرى فى بلاط الخليفة ، فبرىء من تهمة الزندقة • لكن دراسة الفلسفة لم تسترد مكانتها ، فقد تعقب علماء الدين كل الثقافات الانسانية الى أن قضى على الفلسفة نهائيا فيما بعد فى أسبانيا بزوال دولة بنى مرين •

كان ابن رشد خليفة أرسطو ، فكان يرى فيه كمال الفلسفة ، ذلك أن الفلاسفة المسلمون كانوا صورا مكررة لأرسطو ، حيث اتخذوا فلسفته أساسا فكريا لفلسفتهم ، ولكنهم أخذوا من مؤلفاته القدر الذى يمكن أن يتلاءم مع العقيدة الاسلامية ، ولهذا قطعت أوصال الفكر الأرسطى بحيث ضاعت معالمه الكلية ، ولذا كرس ابن رشد جهده فى كشف « الصورة الحقيقية لأبى الفلسفة » •• ونقلها دون تحريف الى الفكر الاسلامى ، فأخرج من « ميتافيزيقية » أرسطو أسس اتجاهه الفكرى •

كتب ابن رشد ثلاثة شروح — كبير ومتوسط وصغير — على مؤلفات أرسطو •• وبعد أن يتناول المؤلف الشروح الثلاث بالتفصيل وعلاقتها بالنص ، يذهب الى أن المنطق اليونانى — طبقا لرأى ابن رشد — كان السلاح الفعال للتبرير الفلسفى للدين ، فقد تأسس جوهره — أى الدين — فى لدهاليز الفلسفية أما الصورة الخارجية ، والتفاسير التقليدية فهى لعامة الناس ، وهى تخدمه بطريقة مبسطة ، تتضمن صورا غريبة على العقل ، وبالتالى لا يتناولها فى المناقشات الفلسفية •

يتعارض الوحى الدينى مع الحقيقة الفلسفية المتصورة ، ولذا بحث ابن رشد عن التوفيق بين الطرفين ، فى كيان العقل الفعال ، الذى يرجع أصله الى الوجود الالهى • وهو فى هذه النقطة يكمل مسيرة الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه ، حيث كانوا يرون أننا نملك جزءا من الادراك الالهى ، ماله والانسان يكونان — بناء على هذا — قطبين متواجهين فوق معبرة بين الوحى والعقل •• وبعد أن يشرح المؤلف أفكار ابن رشد فى المادة والروح وتركيب الكون وعلاقته بالله والانسان يقول :

« فاذا لوحظ أن انتاج ابن رشد الفكرى لم يكن جديدا ، فيكفى أنه كان يمثل نقطة الذروة فى الفلسفة الاسلامية وكان تأثيره على أوروبا فى القرون الوسطى واضحا ، فنحن نرى فى مصطلحات بعض فلاسفتنا ملامح تفكير ابن رشد ، اقتبسوها من كتبه التى ترجمت الى اللاتينية ولا زال أثر كتابه الطبى عن فن العلاج والمداواة — الذى ترجم الى اللاتينى فى عام ١٥٣٢ م — ملموسا فى مجال الطب فى البلاد الغربية حتى عصرنا الحالى وأكثر من هذا كله أثره على الشاعر الايطالى « دانتى » فى « الكوميديا الالهية » وجملة القول ان مؤلفات ابن رشد كانت من أهم الأعمال العقلية التى أسهمت فى قيام جسر فكرى بين الشرق والغرب •

* * *

obeikandl.com